

طبائع البدو وآداب الإسلام

محمود عرفة محمود^(١)

كلية الآداب - جامعة القاهرة

اشتهر العرب قبل الإسلام بالصفات والخلال الكريمة التي كان للطبيعة الصحراوية وشدة الجذب وقسوة الحياة أثرها في تطبيعهم بها وغرسها في نفوسهم. وصارت وفرة الفضائل وتنوع المآثر من سمات التميز التي اصطبغت بها فطرتهم.

خلال البدو السامية:

كان من أهم صفاتهم الجليلة التي تغنى بها الأدباء والشعراء على مر الزمان؛ المروءة وعلو الهمة والوفاء بالعهود والشجاعة والفروسية والكرم الخيالي. فلم تكن خصلة عندهم تفوق الكرم وإغاثة البائس الفقير^(٢). وكان الكرم اللامحدود يمثل إحدى مفاخرهم التي يحرصون عليها. فكانوا يتباهون بكثرة الأضياف وذبح الإبل وإطعامها المحتاج، لأن الميل الفطري للبقاء هو من أهم سمات سحاء العرب المشهورة، والكرام عندهم هو من أعطى فحرم نفسه وبذل من نصاب حاجاته الضرورية. فلما سئل قيس بن سعد: «هل لقيت أكرم منك؟ فأجاب: أجل؛ لأن المنح لا يستحق الثناء إذا كان المرء موفور النعمة، وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله». لقد وجد العرب في فعل الخير شرفاً يخلد على مر العصور، يتضح ذلك من رد حسان بن سهل على من قال له: «لا خير في الإسراف»، فقال حسان: لا إسراف في الخير». ولما وجه الحسين بن علي بن أبي طالب اللوم لعبد الله بن جعفر على إسرافه في البذل قال: «لقد عودني الله أن يغمرنى، وعودته أن أعقد نعمه على خلقه، وإنني لأخشى إذا أنا هجرت عادتي، أن يهجر الله عادته». ولقد أقر الإسلام أخلاق الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٣).

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ١٠.

(٣) القرآن الكريم، سورة الإنسان: الآية ٨.

الواقع أن إيواء الغرباء وإطعامهم بلا مقابل وهو ما يُعرف بالقرى، يرجع إلى عادة قديمة وتقاليد جلييلة تنسب إلى النبي إبراهيم الخليل - عليه السلام - ولقد ذكر القرآن الكريم ما قام به النبي إبراهيم لإكرام ضيفه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾. وقد احتذى العرب هذا المثل الكريم عن جدهم، وصار عندهم كرم الضيافة يضرب به الأمثال بعد أن انتشر في جميع أرجاء الجزيرة العربية. وكان من أشهر من اتصف بالكرم من رجالات العرب كعب بن مناة، وقيس بن سعد، وأوس بن حارثة، وعبد الله بن حبيب العنبري، وهرم بن سنان^(٢)، وحاتم الطائي - الذي قال لخيطته «ماوية» في معنى الكرم^(٣):

أماوى قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنا عن طلابكم العذر
أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
قال في موضع آخر :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويسا وما فى إلا تلك من شيمة العبد^(٤)
كان من مظاهر كرمهم إيقاد النيران ليلاً لتمكين الغرباء من الاهتداء إلى الأماكن التي يقطنونها، وكانت النيران توقد على المرتفعات. وقد بالغ بعضهم فى الكرم فكانوا يستخدمون المندلى الرطب - وهى أعواد من العطر - حتى يهتدى بها العميان^(٥). وعن إشعال النيران على المرتفعات يقول الشاعر:

له نار تشب على يفاع إذا النيران ألبست قناعا
ولم يك أكثر الفتیان مالا ولكن كان أرحبهم ذراعاً

وفضلاً عن ذلك كانوا يجتذبون الغرباء إلى مواضعهم بنباح الكلاب^(٦)، وكانت عادة معروفة عند العرب، فينبح الشخص الذى ضل طريقه، فتنبح الكلاب على نباحه فيهتدى

(١) القرآن الكريم، سورة الذاريات: الآيات ٢٤ - ٢٧.

(٢) ابن عبدربه: العقد الفريد، القاهرة، ١٩٢٨م، ج ١، ص ٣٣٥.

(٣) الألوسى: بلوغ الأرب، ١٣١٤ هـ، ج ١، ص ٤١٦.

(٤) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج ١، ص ٣٣٥.

(٥) الألوسى: بلوغ الأرب، ج ١، ص ٤١٦.

(٦) الألوسى: المرجع السابق، ج ١، ص ٥١.

إلى مكان الضيف، وفي ذلك يقول نابغة بن جعدة^(١):

عودى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبىح كلب أو لفرع قوم
فجاوبه متممع الصوت للقرى له عند إتيان الملمين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف للقرى يكلمه من حبه وهو أعجم

ولقد حرص الإسلام على هذه الخصلة الكريمة، فقال النبي (ﷺ) مرشداً المؤمنين إلى حب الخير: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٢).

كانت الشجاعة والفروسية من المثل العليا عند العرب؛ ذلك أن حياتهم الرعوية البسيطة وقسوة الصحراء فرضت عليهم سمو الخلقى فصاروا يستهينون بالموت إلا تحت ظلال السيوف، يقول السموأل بن عاديا:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الطباة نفوسنا وليست على غير الطباة تسيل

لما كانت حماية الضعيف والدفاع عنه هي شرع الفروسية؛ لذلك تنافس الفرسان فى مساعدة النساء والأرامل والأيتام والمغلوبين على أمرهم، وجعل كل منهم سيفه فى خدمة الحق والانتصاف للمظلوم من الظالم. ولقد استخدم فرسان العرب شجاعتهم أنبل استخدام فصارت رهن إشارة البائسين، ولم يكن من بينهم من يرفض حماية ضعيف أو الدفاع عن مظلوم استنجد به. وكان الضعيف إذا احتمى بالقوى ضمن له الحماية والأمان من نفسه، ومن أهله وعشيرته فى حياته وبعد مماته، وكان العرب يتباهون بكثرة من يلوذ بهم ويطلب حمايتهم. وكانت القاعدة عندهم حماية الجار بريئاً كان أم آثماً حماية كاملة ضد الجميع مما أدى إلى تحملهم مسئوليات جسيمة، وجر عليهم مشاكل عديدة. وكان امتداد الحماية واتساع نطاقها يعنى المزيد من السمو وعلو القدر والمنزلة. فلما أقبل الشاعر الأعشى يوماً على علقمة بن علان سائلاً أن يكون فى حماه قبل أن يحميه من الإنس والجن، فطلب الأعشى أن يحميه من الموت أيضاً فاعتذر. فقصد الأعشى الشاعر، عامر بن طفيل، وسأله الحماية الكاملة، فوعد بأن يحميه ولو من الموت. فسأله الأعشى: وكيف أنت فاعل؟ قال:

(١) مسلم: صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٤.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٤.

إذا أتاك الموت وأنت في حماى دفعت لأهلك ديتك. فأعجب الأعشى من هذا الجواب وأنشد يمدح عامراً ويهجو علقمة.

ومما يجدر ذكره أن المرء إذا لم يجد فى طريقه رجلاً قوياً يحتمى به، كان يستجير بأى اسم، فلما أوشك بنو الحارث أن يقتلوا رجلاً يدعى خالدا، استجار بواحد منهم هو قس ابن الصمة، لكن قسا كان غائباً ولم يفد ذلك خالدا، فلما عاد قس بعد فوات الأوان، غضب وعاب على أهله ما ألحقوه به من الهوان، إذ بلغت الجرأة بهم أن يرفعوا أيديهم على من احتمى باسمه^(١). وكان الرجل إذا ما تخلى عن حماية الضعيف لحق به العار وصار رمزاً للمذلة والهوان - اللذين كانا يأنفهما العربى الحر.

قال المتلمس:

إن الهوان حمار الهل يعرفه والحر ينكره والرسالة الأجد

كان من أشهر فرسان العرب، خالد بن جعفر بن كلاب العامرى، وعتيبة بن الحارث، وعامر بن الطفيل، وقيس بن معد يكرب، وعمرو بن كلثوم، وعترة بن شداد، وقد وصف الأعشى شجاعة قيس بن معد يكرب بالبسالة والجرأة فى ميادين الحرب حيث كان يقاتل بدون ترس، وذلك أنه كان يقيناً أن الإنسان سيموت حتماً فلكل امرئ أجل محتوم فقال^(٢):

كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها
وعلمت أن النفس تلقى حتفها ما كان خالقها المليك قضى لها

ولقد أقر الإسلام الشجاعة والإقدام وجعلهما من صفات المؤمن بعد أن هذبهما وجعلهما فى خدمة الحق ودفع العدوان فقال تعالى: ﴿يَتَّيِّهُا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤٥)، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْرَابِهِ وَتَقْتُلُونَ رُسُلَهُمْ أَنْ يَنفَخُوا إِلَيْهِمُ الرِّيحَ بِرُوحِهِمْ فَنُفِثُوا فِيهَا فَاَنْجَبُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا وَكَرِهُوا إِذْ يُسْقٰتُونَ فِيهَا مِنَ الرِّيحِ وَرُسُلَهُمْ يَتْلُوا فِيهَا إِلَيْنَا آيَاتِنا أَنْ يَسْرِجُوا سِرًّا بِاللَّهِ يُفْرِغُونَ فِي النَّارِ أَبْغَابُهُمْ يَخْفَوْنَ فِيهَا وَالنُّجُومُ كَالْحِجَابِ يُسْقٰتُونَ فِيهَا كَالْفِئَةِ فِئَةٌ لِّسِتٍّ مِّنْ أُمَّةٍ وَحُجْرَاتُهَا كَالْحُجُرَاتِ وَخِزْيَانُهُمْ فِيهَا خٰزِنُونَ﴾^(٤٦)

(١) الأصفهاني: كتاب الأغاني، ٢١ جزءاً، القاهرة، ج ١٠، ص ٢٢٨.

(٢) شوق ضيف: العصر الجاهلى، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٣٤٩.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأنفال: الآية ٤٥.

(٤) القرآن الكريم، سورة الأنفال: الآيتان ١٥، ١٦.

وتتجلى فروسية العرب ونبذهم للهوان والضميم فيما عرف عندهم بالاعتضاد، وهو أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداً حتى الموت جوعاً، فكان يسترخص الحياة، ويقبل على الموت مترفعاً عن الدنيا والخساسة في طلب الرزق، فإذا ضاق على أحدهم رزقه، حمل أهل بيته إلى موضع فُضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يلقوا جميعاً مصيرهم^(١).

كان الحلم من أجل الصفات التي تدل على مكانة الفضيلة بين العرب، وهي تعنى الصفح والمغفرة عند المقدرة، فكان الحليم يستطيع التغلب على نفسه عندما يتغلب على عدوه. وبلغ من انتشار هذه الصفة الحميدة أن انتشرت بين العرب الأمثلة التي تؤكدوا وتشجع على الأخذ بها فقالوا: «الكريم من يغفر الذنوب ويستر العيوب» و«إذا غلبت فكن عفواً» و«لا عظمة مع الحقد»، وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤكد هذه الصفة الحميدة ويعضدها فقال الله تعالى:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)

كما كان التسامى عن الدنيا والنقائص يُعد من صفات العزة والكرامة ويتجلى في الغض عن العورات، قال عنتر بن شداد:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
إني امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها

كانت عفة العربي هي شرفه، الذي يموت دونه وهمته التي تضطرم بين جنبيه، فقد عرف عندهم أن الرجل الذي يتأثر بالنساء في مسيرهن ويجعل همه ابتغاء المهينات منهن جبان، ساقط الهمة، مغمور العرض؛ لأن مغالبة النفس وقمع الهوى أدل على الشجاعة، وكانوا يقولون: «ليس سيدياً من غلبته شهوته»^(٢).

ولقد نمت هذه الصفة الحميدة في ظل الإسلام وارتقت، فجاء في قوله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَصْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (٤)

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٤٣ - ٤٦.

(٢) القرآن الكريم، سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٣) عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مصر، ١٣٤٠هـ، ج ١، ص ٦٢ - ٦٣.

(٤) القرآن الكريم، سورة النور: الآيات ٣٠، ٣١.

على أن الوفاء بالعهود وكراهة الغدر كانت من أعظم الصفات الملازمة للعربي، وكانوا يشهرون بمن يغدر منهم في المجتمعات العامة والأسواق الكبرى، حتى يلحقوا بخائن العهد العار. ولعل وفاء ابن زهير المازني الذي قتل أخاه لغدره بجار له من أشهر قصص الوفاء عند العرب قبل الإسلام، لذلك ارتفع الوفاء بالعهد إلى قدسية الدين، وبات من يحنث بوعده آثمًا يتعرض لازدراء الناس ولعنة الله. ومن أجمل مظاهر التمسك بالعهود أن الحروب المشتعلة بين عشائر العرب وقبائلهم، كانت تخمد عندما يهل شهر الهدنة وذلك بلا رقيب أو حاكم، فيعم الأمان أرجاء القرى والبيوادي وتنقل السلع دون خوف أو حذر. فالعهد في الصحراء كان يعنى النجاة، وكلمة الوفاء كانت تعنى الفخر والنبيل والجلال. ولعل من أنبل صور الوفاء بالعهد حفظ السمؤال بن عاديأ أمانة امرئ القيس التي أودعها لديه، فلما أتاه الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذ منه أدرع امرئ القيس امتنع السمؤال، فأخذ الحارث ابنا له غلاما، وقال: إما أن سلمت الأدرع إلى وإما قتلت ابنك.

فأبى السمؤال أن يخون أمانته، فضرب الحارث وسط الغلام فقطعه قطعتين، فقال السمؤال في ذلك^(١):

وفيت بذمة الكندي إنى إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عاديأ يوما بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
بني لى عاديأ حصنًا حصينا وبثرا كلما شئت استقيت

ولقد أوصى الإسلام بالوفاء بالعهود وشدد على الحفاظ عليها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٢).

وقصارى القول: إن الخلق العربي الأصيل قد حظى من الإسلام بكل التشجيع والمؤازرة بعد أن رضيه الله تبارك وتعالى دينًا للمؤمنين وأساسًا للسلوك الاجتماعي الإنساني، وقد أحله الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه محلاً سامياً رفيعاً فقال: «بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فاستمر الخلق العربي الراقى شرفاً يتوج المؤمنين، فلم يكن ثمة تعارض بين ما كان عليه العرب وما جاء به الإسلام إلا فيما يتعلق بالعصبية التي عرفها الإسلام بحمية الجاهلية الأولى. وقد شهد لوبون بذلك حين قال: «إن أخلاق العرب في الأدوار الأولى من

(١) الأصفهان: كتاب الأغاني، ج ٢٠، ص ١٣٤.

(٢) القرآن الكريم، سورة النحل: الآية ٩١.

الإسلام أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ولاسيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعتدالهم، ورأفتهم وتسامحهم، ووفائهم بعهودهم ونبيل طبائعهم، مما يستوقف النظر، ويناقض سلوك الأمم الأخرى»^(١).

العادات الاجتماعية والإسلام:

ارتبطت أهم العادات الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام بمعتقداتهم الدينية متأثرين في ذلك بالطبيعة الصحراوية الموحشة، التي جعلتهم يؤمنون بوجود قوى خفية خارقة لها أثرها في حياة الناس، ومقدراتهم وما يتعرضون له من خير وشر، ولذلك عمدوا إلى التقرب منها بالزيارات والقرابين والتضرع والتوسل والأدعية والصلوات التي تقام في مناسبات مختلفة.

كان لهذا الاعتقاد الديني أثره الروحي العميق في نفوسهم مما جعلهم يؤمنون بقدرة المنجمين والسحرة على إمكانية السيطرة على هذه القوى الخفية وتوجيهها طبقاً لرغبات أصحاب الحاجات، لأن هذه القوى متغلغلة في أجسامهم ومحيطه بهم في كل مكان، وأنها ذات طبيعة نافعة ضارة تبعاً لتوجيه السحرة، ومما زاد من تأثر الناس بها أنها خفية غير مرئية، وأنها تستطيع إلحاق الأذى والضرر بالإنسان في كل مكان وزمان، ولا سبيل لاتقاء شرها سوى بمحاولة التقرب والتودد إليها عن طريق أولئك السحرة والمنجمين، بوسائط من الجن الذين يعيشون في الظلام مستقرين، واسترضائهم لازماً لدفع الأذى والضرر عن الإنسان فتجلب له الخير والسلام. ويتجلى هذا الاعتقاد في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾^(١٥٨)، ذلك أن قريشاً جعلت بين الآلهة وبين الجن والوسطاء قرابة، وأنها تشارك الله جل جلاله قدراته، سبحانه وتعالى عما يشركون: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(١٠٠).

كان من عاداتهم التي ارتبطت بالجن، ضرب الثور، الذي يركب الجن قرنيه ليقترحم الماء عندما يمتنع البقر عن شرب الماء. وذلك لاعتقادهم أن الجن تصدت للبقر فتقحمها الشيطان - أخطب أنواع الجن - الذي ركب قرني الثور^(٤).

(١) لوبون: حضارة العرب، عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٤م، ص ٤٥٣.

(٢) القرآن الكريم، سورة الصافات: الآية ١٥٨.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

(٤) الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٠٣.

كما اتخذوا وسائل من الأرواح التي تسكن أجساد أصنامهم - على زعمهم - لتوصيل رغباتهم إلى الآلهة، وذلك لاعتقادهم أن لها قدرات خارقة على إحلال الخير ودفح الأذى والضر عن الإنسان فضلاً عن توجيه الشر إلى أعدائهم، وكان الكاهن ذو القدرات والمواهب الخاصة هو الذى يستطيع القيام بذلك، فيتصل بها ويؤثر فيها حتى يستشف منها مستقبل الإنسان وما تخبئه له الأقدار. وكان السحر والكهانة منتشرين بين غالبية العرب فى قبائلهم وعشائرهم، مدنهم وباديتهم، وكان الكاهن يستقى الأخبار ويعرف المغيبات ويقراً المستقبل بوسيط من الأرواح يعرف بالتابع، الذى كان يسترق السمع وينقل للكاهن ما سمعه^(١)، ولقد سخر جهم الهذلى من هذا الاعتقاد فقال:

يظنان ظنا مرة يخطئانه وأخرى على بعض الذى يضعان
قضى الله أن يعلم الغيب غيره ففى أى أمر الله يمتريان

كان العربى يعتقد أن للكهنة أذهاناً حادة ونفوساً شريرة وطباعاً نارية هى التى جعلت الشياطين تأنس لهم وتساعدهم بكل ما تصل قدراتهم إليه، لذلك كان للكهانة شأن عظيم فى حياة الناس، وصارت جزءاً من حياتهم اليومية لا يستطيع المرء أن يتحرك أو يقدم على عمل إلا بعد الرجوع إليها. ولما سئل النبى (ﷺ) عن الكهان؟ قال: «ليسوا بشيء». قالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقاً. فأخبرهم الرسول (ﷺ): «ذلك من جهة الشياطين يلقون إليهم الكلمة فتكون حقاً فيزيدون هم معها مائة كذبة»^(٢).

كان لكل قبيلة كاهن أو عدة كهان يرجع إليهم أفرادها لاستشارتهم فى كل أمر عظيم يقدمون عليه أو لمعرفة أسباب الكوارث التى تعرضوا لها، وكان الكاهن يتفق مع أصحاب الحاجات المتلهفين على قراءة المستقبل، على الحلوان، وهو المقابل الذى يتناوله الكاهن، ويعطيه للتابع لأن الحاجة تظل معلقة لا تتحقق إلا بدفع الحلوان، وقد نهى الرسول (ﷺ) عن «ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن»^(٣). على أن بعض الكهان كانوا قد ودعوا تابعيهم من الجن وآثروا إعداد قبائلهم للدخول فى الإسلام^(٤).

(١) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، العراق، ١٩٥١م - ١٩٦١م، ج ٥، ص ٣١٣.

(٢) العينى عمدة القارئ، ج ٧، ص ٣٥، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج ٤، ص ٣٥٤.

(٣) القسطلانى: إرشاد السارى، مصر، ١٢٨٥هـ، ج ٨، ص ٤٠.

(٤) السهيلى: الروض الأنف، مصر، ١٩١٤م، ج ١، ص ١٣٧.

لم تقتصر الكهانة على معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل عن طريق تابع، بل استخدم الكهان وسائل أخرى فمنها العرافة والقيافة والزجر والطيرة والعيافة والأحلام والاستقسام بالأزلام وطرق الحصى والخط على الرمال والتفرس في ملاحظة بعض أجزاء أجسام الحيوان أو الإنسان، فضلاً عن التنجيم.

ويختلف الكاهن عن العراف، فالكاهن يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الأزمان ويدعى معرفة الأسرار عن طريق التابع، أما العراف فهو الذى يدعى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة وذلك عن طريق دراسة مقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها، ويرادف معنى العرافة التنجيم^(١). وكان العراف يتمتع بالذكاء والتفرس فى الأمور والتجارب وله ملكات ومواهب خاصة، يقضى ويتنبأ للناس بالملاحظة والاستنتاج بمراقبة الأشياء، ومن العرافين رباح بن عجلة - عراف اليمامة، والأبلىق الأسدى - عراف نجد.

أما القيافة فيقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه، وتنطوى فى بابها قيافة آثار الأقدام والأخفاف وحوافر الحيوان والطيور للاستدلال على أصحابها، وقد اشتهر بنو مدلب وبنو لهب بالقيافة^(٢).

كما كانت الفراسة من أنواع الكهانة التى انتشرت فى بلاد العرب قبل الإسلام وهى الاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله على صفاته وطبائعه. والعيافة هى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها وقراءة بعض أحشائها. ولذلك أطلق على العائف اسم الشاق، لأنه يشق بطون الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف. واشتهر بنو أسد بالعيافة، وكذلك بنو لهب - وهم حى من الأزد، منهم لهب بن أحجم بن كعب وهو الذى تكهن بمقتل عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام^(٣). وقد أجمل ابن خلدون تعريف الكهان بصنوفهم المختلفة بقوله: «هم الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان»^(٤).

(١) الزبيدى: تاج العروس، مصر، ١٣٠٦هـ، ج ٦، ص ١٩٣.

(٢) ابن دريد: الاشتقاق، طبعة جوتنجن، ١٨٥٤م، ص ٢٨٨.

(٣) السهيلي: الروض الأنف، ج ١، ص ١١٨.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٠٧.

يعد الاستقسام بالأزلام^(١) - الذى عرف طريقه إلى عادات الناس الاجتماعية - إحدى طرق التنبؤ، وكان يتم ذلك أمام الأصنام حتى يكون تعبيراً عن مشيئة الآلهة وإرادتها، كما أن بعض الكهان كانوا يحملون الأزلام على أكتافهم يستقسمون بها فى الأسواق والمجتمعات العامة خاصة أيام الأعياد. وكان القائم بالاستقسام يتقاضى أجراً معلوماً يصل إلى مائة درهم عند سدنة هبل^(٢). وكان الناس يتفائلون بالأزلام، وصارت جزءاً من حياتهم اليومية فكانوا يرجعون إليها فى حالات السفر أو العمل أو الزواج أو دفع الديات فضلاً عن التثبث فى الأنساب المشكوك فيها، وقد ورد ذكرها وتحريمها فى القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّيَّتُكُمْ وَأَلْدُمُ وَالْحَنَزِيرُ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

كان الطرق - وهو الضرب بالحصى - من عاداتهم الاجتماعية، وكان يقوم به الطراق من الرجال والنساء للكشف عن المستقبل، وذلك بأن يخط الطارق خطوطاً كثيرة بسرعة على الأرض ثم يمحو على مهل خطين خطين، فإن بقى خطان فهما علامة الرضى والنجاح، وإن بقى خط واحد فهو علامة الهيبة. ومنهم من كان يخط ثلاثة خطوط ثم يضرب عليها بشعير أو نوى، ويتمتم بحاجة المرید، فإن أصيب خط واحد وبقى خطان كان الفلاح، وإن أصيب خطان وبقى خط واحد فهو علامة الفشل والتشاؤم. وقد سخر أحد الشعراء من الطرق بالحصى وهو لبيد بن ربيعة فقال^(٤):

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
أما الزجر فهو رمى الطيور بحصاة ثم يصيح الرامى ليفزعها ويزجرها وعندئذ يراقب
حركات طيرانها؛ فإن تيامنت - أى اتجهت يميناً - تفاعل وخرج لقضاء حاجته، وإن

(١) الأزلام: هى أسهم مكتوب على بعضها افعل والباقي لا تفعل، فإذا جاء أحد يريد الاستقسام أجال السادان الأزلام فما يخرج يعمل به.

(٢) ابن الكلبي: الأصنام، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م، ص ٢٨.

(٣) القرآن الكريم، سورة المائدة: الآية ٣.

(٤) الألوسى: بلوغ الأرب، ج ١، ص ٣٣٠.

تياسرت - أي اتجهت يسارًا - تشاءم به. وقد عرف الزجر بالطيرة وذلك لاعتماد الزاجر على الطيور في زجرهم^(١). وقد انتشر التطير في حياة الناس فصار يشمل الحيوان والأسماء والكلمات والأعداد، كما تطير البعض بذوى العاهات وذوى القبح الشديد، واعتبروهم نذير شؤم فكانوا يتجنبون الالتقاء بهم. يقول الجاحظ: «حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتز زجروا عند ذلك وتطيروا عندها. كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال»^(٢). ويعلق على ذلك بقوله: «وأن التطير من الطير إذا مر بارحا (ميامنا) وسانحا (مياسرا) أو رآه يتفلى أو ينتف، فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء... فسمت العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة، وكنوا الأعمى أبا البصير والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم»^(٣)، وقد سخر العقلاء من التطير كما جاء في قول النابغة:

تعلم إنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بل شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطه كثير
وقول المرقش:

ولقد غدوت وكننت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من، والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم

وقد نهى الرسول (ﷺ) عن التطير بقوله: «اقروا الطير على مكنتها، لا تطيروها ولا تزجروها»^(٤).

كذلك تطير العرب بقراءة أحشاء الحيوانات، وبخاصة الكبد، لأنه في نظرهم موطن العداوة ومقر الحقد، فكان يقال للأعداء سود الأكباد لأن الحقد أحرق أكبادهم حتى أسودت^(٥).

(١) الزبيدي: تاج العروس، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٢) الجاحظ: الحيوان، القاهرة، ١٩٣٨م، ج ٣، ص ٤٣٧.

(٣) الجاحظ: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٨.

(٤) الجزري: جامع الأصول، ج ٨، ص ٤٥٢.

(٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣٧٨.

واشتهر عند العرب التطير بالمرأة، ف قيل: «لا عدوى ولا طيرة، إنما الشؤم في ثلاث، في (الفرس والمرأة والدار)»^(١).

وكانوا في اعتقادهم يتغلبون على شؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح، فمن تقاليدهم ذبح عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى زوجها ووصولها إلى عتبة الدار طرداً للأرواح الشريرة وإرضاء لها، وكان من عاداتهم أيضاً الذبح على عتبة الدار الجديدة، وتعرف هذه الذبائح بذبائح الجان^(٢).

كان العرب يتشاءمون أيضاً من بعض الطيور والحيوانات ومن أهمها البوم والغراب، والحيوانات ذات العاهات، فكانوا يقولون ليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه. وغالبيتهم يتطير إذا صاح الغراب صيحة واحدة، إلا إذا ثنى تفاءلوا. وعند غيرهم إذا صاح صيحتين فهو شر، وإذا صاح ثلاث مرات فهو الخير^(٣). وقد اشتقوا من اسمه الاغتراب والغربة والغريب لتشاؤمهم منه، واعتبروا أكل لحمة عارا لأنه يأكل الجيف والقاذورات^(٤). وأشد ما يتشاءمون بالغراب إذا ولاهم ظهره أو شماله^(٥)، أو أبصروه يتفلى وينتف، كذلك أمر الجراد عندهم لأنهم تنظروا منه الجرد، ولأنه مختلف الألوان فهو عندهم كحوادث الزمان^(٦).

أما البوم فكان من أسباب التشاؤم بها منظرها الكئيب وصوتها الحزين وظهورها في الليل، وقد وصفوها بأمر الخرائب^(٧)، ولذلك اعتقدوا أن روح الميت المرفرفة على القبر هي البوم.

وكانوا يتطيرون من الثور الأغضب (المكسور القرن) ومن الحية والثعلب، فلحركات هذه الحيوانات ولأصواتها أثر في التنبيه بوقوع الشر^(٨).

(١) العيني: عمدة القارئ، ج ٢١، ص ٢٨٩.

(٢) الزبيدي: تاج العروس، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٤) الجاحظ: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٩.

(٥) ابن سيده: المخصص، ج ١٣، ص ٢٤.

(٦) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ١٣٦.

(٧) الدميري: حياة الحيوان، ج ١، ص ١٨١.

(٨) الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٣٨.

ومن ناحية أخرى كان العرب يتفاءلون بالهدهد فهو عندهم آية اليمين وسبيل الهداية. وكانوا يعتقدون أنه كان يدل النبي سليمان - عليه السلام - على مواضع الماء في أعماق الأرض^(١). على أن العرب بصفة عامة كانوا يعتقدون أن الطيرة والفأل مكتوبان على الإنسان، وأن حياته ومصيره مقرران^(٢).

لاشك أن البيئة الصحراوية القاسية هي المؤثر الحقيقي في تطيرهم، لأنهم كانوا كثيراً ما يتعرضون للكوارث ويبتلون الناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل والافتراس، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف الجاني والجرح والقاتل وكيفية الطلب والهرب^(٣).

كذلك تعلق الناس بالسحر والسحرة لاعتقادهم بقدرتهم على القوى الخفية لتجنب الأذى وتحقيق الخير، وصار السحرة مكانة كبيرة بين الناس وبخاصة النساء، فاستعانت المرأة بالحسد للتأثير في قلب الرجل والاستئثار به دون باقي زوجاته، واستعانت المرأة للتفريق بين الرجل وزوجته حتى تحصل عليه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَرُونَ وَمَرُونَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيَسَّ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

قسم ابن خلدون السحر إلى ثلاثة أنواع فقال: «السحر بالمعنى المفهوم عند الفلاسفة هو: التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين، والطمسات وهي التأثير بمعين من مزاج الأفلاك والعناصر أو خواص الأعداد، والشعبذة والشعوذة وتكون بالتأثير في القوى المتخيلة، والتصرف فيها بقوة نفس الساحر المؤثرة، حتى يرى الرائي شيئاً في الخارج وليس هناك شيء»^(٥).

(١) الجاحظ: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٣٣٤.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج ٦، ص ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٥) انظر: المقدمة، ص ١٠٨.

كان السحرة يستخدمون بعض النباتات والأعشاب لاستخلاص المادة الخاصة بعملهم، أو الاستعانة ببعض الجمرات ووضعها في طريق مرور الشخص المراد التأثير فيه، وذلك بعد القراءة عليها، كما استعملوا السلوانة وهي عبارة عن مسحوق يتخذ من تراب قبر أو خرز يقرأ عليه ثم يغتسل به الإنسان، وقيل: إنه يطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى. قال الشاعر^(١):

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياني
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا بها سقياني

كذلك استخدموا السحر في الاستمطار، وذلك لأهمية الماء في جزيرة العرب القاحلة. وقد أبطل الإسلام عادة الاستمطار وأحل محلها صلاة الاستسقاء^(٢).

أما استخدام السحر في الأذى، فكان يتم بالنفث في العقد، الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة الفلق قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾^(٣). وكانت المرأة تأتي بخيط أو وتر وتقرأ عليه شيئاً مبهم القول، وبينما هي تتمتم تعقد العقدة^(٤). ويرى المفسرون أن لبيد بن أعصم اليهودي كان يستخدم بناته الساحرات في النفث في العقد، وكانت بناته بعد أن يتم لهن النفث في العقد يقمن بدس الخيط في بئر بني زريق، وهي بئر ذروان تحت حجر أسفل البئر، وكانت عاداتهم دفن السحر في معطن من الأرض، فلا تزال الجن موكلة بإذن المسحور به مادام الخيط في موطنه^(٥). فلما استخرجوا السحر من بئر ذروان وجدوا مشاطة رأس، وأسنان مشطية، وإذا فيه خيط معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر.

كذلك كان السحرة يستخدمون أوراق بعض النباتات وخلطها مع الملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات ثم حرقها وإذابتها في الماء أو دفنها، وفضلاً عن ذلك كانوا

(١) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٣٤٠.

(٢) العيني: عمدة القارئ، ج ٧، ص ٢٤.

(٣) سورة الفلق.

(٤) القسطلاني: إرشاد الساري، ج ٧، ص ١٤.

(٥)

يعمدون إلى التنفير وذلك باستخدام كل ما ينفر ويفرز لطرد الأرواح الشريرة من الأماكن والأشخاص، ومن ذلك استخدام عظام الموتى وبعض أجزاء من عظم الحيوانات أو مخالب الطيور، التي كانوا يتشاءمون منها. ومن ناحية أخرى ينصحون روادهم بحمل الحمائل وتعليقها في الجبهة للحماية ودفع الأذى أو لمنح البركة والتوفيق والنصر في الحرب، وكانت الحمائل على صنفين؛ الطبيعي ومنها أنواع معينة من الأحجار أو النباتات أو المعادن النادرة وقد يكون جزءاً من إنسان أو حيوان. والصنف الآخر معمول وهو الحمائل المكتوبة أو المنقوشة أو المصورة، وهي التي كتبت أو نقشت بأسلوب خاص يمتاز بالغرابة والغموض مع تزييلها بأجزاء من الكتب المقدسة أو الأدعية أو أسماء الآلهة أو الجن أو الملائكة. والحمائل هي ما كان يعرف عند العرب بالتمائم.

وكانت الرقية من أشهر عاداتهم الاجتماعية في مداواة بعض الأمراض المستعصية، وخاصة فيما يتعلق منها بالعصبية مثل الحمى، والصرع، ولدغات العقارب والحيات، ويتم ذلك بقراءة شيء على المريض ثم النفث عليه. فضلاً عن ذلك استعملتها المرأة العربية بكثرة، لاعتقادها أن الخرز له أثر في إصلاح أمرها من اجتلاب خير أو دفع مكروه، وكانت تقرأ عليها كلمات أَعدها السحرة لهن، ومن أنواع الخرزات الهَيْمَةُ^(١)، والدردبس^(٢)، وكرار^(٣)، والقبلة^(٤)، والصفرة^(٥)، والعطفة^(٦)، والينجلب^(٧)، وكان رقاهن لتأليف القلوب هواية. هواية البرق والسحابة أخذته بمركن فحبه تمكن. أخذته بإبرة فلا يزل في عبرة. جلبته باشفى فقلبه لا يهدأ. جلبته بمبرد فقلبه لا يبرد.

كذلك كانت المرأة العانس تقوم ببعض العادات من أجل إيجاد خطيب لها، فمن ذلك نشر جانب من شعرها وتكحيل إحدى عينيها وتكحيل إحدى رجليها على أن يكون ذلك

(١) الهَيْمَةُ: خرزة تجتذب بها المرأة قلب زوجها. ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٧١٢.

(٢) الدردببس: خرزة سوداء تتحبيب بها المرأة إلى زوجها.

(٣) كرار، خرزة يؤلف بها نساء البادية قلوب رجالهن. ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٣٨٥٢.

(٤) القبلة: خرزة نساء الأعراب ورقبتها، يا قبلة أقبله.

(٥) الصفرة: خرزة يصرفن بها الرجال إذا قست قلوبهم.

(٦) العطفة: خرزة يعطفن بها الرجال إذا قست قلوبهم.

(٧) الينجلب: خرزة يتخذنها للرضا بعد الغضب. الألوسى: بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٧٠٦.

ليلاً، ثم تقول: يالكاح، أبغى النكاح قبل الصباح. وكان يجب عليها أن تلبس خرزة القرزحلة^(١)، وقد سخر منها أحد الشعراء بقوله:

لا تنفع القرزحلة العجائزا إذا قطعنا دونها المفاوزا

ومن عاداتهم الاجتماعية أن يعقد الرجل طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر لقياس حفظ امرأته لنفسها وعدم خيانتها. ومن ذلك أيضاً أن أحدهم إذا أراد دخول قرية واتقاء وتجنب وبائها، فعليه أن يقف على بابها ثم ينهق نهقة الحمار، ثم يعلق عليه كعب أرنب، ثم يدخل الموضوع المراد دون حذر^(٢)؛ وذلك لاعتقادهم أن كعب الأرنب ينفى جنان الدار وشيطان الحماطة^(٣) وغول القفر. كما استملوا سن الثعلب، فمن ذلك أن جنية أرادت صبياً فلم تقدر عليه، فلما سئلت أمه عن ذلك، قالت: كانت عليه نفرة ثعالب وهررة. تلك كانت أهم طبائع البدو وتقاليدهم السامية التي تعرض لها البحث، فضلاً عن مثالب العادات الاجتماعية وتبيان أثر الإسلام في الإبقاء على الخلال الكريمة والقضاء على ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية.



(١) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، ١٣٠٠هـ - ١٣٠٧هـ، ج ٥، ص ٣٥٨٤.

(٢) الألوسى: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٣) الحماطة: شجرة شبيهة بالتين تأوى إليها الحيات.